دراسة الغرباء-الوصم الاجتماعي لهوارد بيكر

درس هوارد بيكر(1928 /2023) علم الاجتماع في سنوات الخمسينات. كان استاذه "ايفريت هيوز" وفي الوقت نفسه كان بيكر عازف بيانو يكسب رزقه في النوادي الليلية وغيرها، ما زاد من اهتمامات عالم الاجتماع بيكر في البيئة الاجتماعية لموسيقى الجاز.

تعرف بيكر على العديد من الأساتذة أثناء دراسته في جامعة شيكاغو.إذ ساهم كل من "ارنست بيرجيس" و"لويس ويرث" و"ايفريت هيوز" و "هربرت بلومر" في تدريب "بيكر" وهو عاشق للفن والموسيقى.

بمجرد تخرجه اتخذ من عالم الجاز مجالا للدراسة الاجتماعية، وهو من أتباع الملاحظة بالمشاركة والتفاعل الرمزي. درس "بيكر" ما يسمى بيئات منحرفة من الداخل، إذ يعد مدخنو الماريخوانا وموسيقيو الجاز من بين موضوعات التحليل التي سمحت له باقتراح نظرية جديدة للانحراف . نشر تحقيقه واستنتاجاته في كتاب الغرباء 1963. أي عشر سنوات بعد إجراء الدراسة. وأضاف "بيكر" فصلين إلى نصه بعد مرور خمسين عاما.

❖ الهدف من الدراسة:

يسعى "بيكر" جاهدا لإظهار أن الانحراف هو نتيجة عملية البناء.

❖ أهمية الدراسة:

كانت هذه الدراسة بمثابة خطوة أساسية في تطور علم الاجتماع وخاصة علم الاجتماع الانحراف. وأصبحت عملا مرجعيا في علم الاجتماع.

❖ السياق المنهجي:

لجأ هوارد بيكر بشكل جزئي إلى طريقة الملاحظة بالمشاركة مع مدخني الماريخوانا، إذ حاور مجموعة منهم عن الطريق الذي قادهم إلى هذه الممارسة، وقد لاقى منهم استجابة نتيجة لارتياحهم وعدم اظهار أي حذر. ويقول في هذا الخصوص أنه ليس بالضروري أن تنخرط بالكامل في النشاط ،وإلا لن يكون بإمكانك دراسة الشيء الهام. يدرس "بيكر" الانحراف من خلال التركيز على وجهة نظر أولئك الذين ينتهكون المعايير مثل مدخني الماريخوانا وموسيقي الجاز، وأولئك الذين يخلقون ويفرضون المعايير بالاعتماد على ملاحظة المشاركين والمقابلات، وهما أسلوبان خاصان بالمنهج الاثنوغرافي.

❖ تعريف الانحراف:

-أبسط تعريف هو إحصائي: ما ينحرف عن المتوسط فهو منحرف. لكن هذا التعريف يترك مفهوم التجاوز جانبا الذي يقع في قلب علم الاجتماع الانحراف.

-مفهوم الانحراف الناتج عن القياس الطبي: يعرف الانحراف بانه شيء مرضي في الأساس، وفي هذا الإطار يعتبر سلوك المثلي أو مدمن المخدرات أحد اعراض المرض النفسي.

-الانحراف هو مصطلح يستخدم في العلوم الاجتماعية الأمريكية لتسمية السلوكيات التي تنحرف عن القاعدة، حدودها غير واضحة، ومع ذلك من الناحية الكلاسيكية، المنحرف هو الشخص الذي ينتهك قاعدة قانونية أو أخلاقية، وعادة ما يعتمد علم اجتماع الانحراف على احصائيات الشرطة والسجون ومكاتب الرعاية الاجتماعية. بالنسبة لبيكر هذا النهج غير مناسب.

-هناك مفهوم اجتماعي آخر أكثر نسبية يعرف الانحراف بأنه الفشل في الانصياع لمعايير المجموعة. وهذا التعريف قريب من تعريف بيكر ولكنه لا يعطي مساحة

كافية للغموض، الذي قد يوجد بين المجموعات الاجتماعية المختلفة، التي ينشأ فيها الفرد اجتماعيا في مواجهة هذه المفاهيم المختلفة للانحراف.

فهوارد بيكر يرى أنه ينتج الانحراف دائما عن التفاعل: فالسلوك المميز اجتماعيا يأتي جزئيا من طبيعة سلوك الفاعل وجزئيا من ما يفعله الآخرون به.

❖ **تعريف الانحراف عند بيكر:**

ظاهرة الانحراف ترتبط ارتباطا وثيقا بالشخص الذي يصدر حكم الانحراف والعملية التي ينتج عنها هذا الحكم، والوضع الذي ينتج فيه.

فاستنادا للدراسة النموذجية عن موسيقي الجاز ومدخني الماريخوانا يوضح "بيكر" أن الانحراف ليس خطأ أولئك الذين يتحملون وصمة العار فحسب، بل أيضا خطأ السلطة التي تحدد معاييره. إنها طريقة جديدة لوصف الحقائق الاجتماعية كعمليات يكون لجميع الجهات الفاعلة دورا فيها.

يفترض بيكر أن الانحراف ليس صفة للفعل المرتكب. ولكنه نتيجة لتطبيق المجموعة الاجتماعية للمعايير والعقوبات على المخالف وبالتالي فالانحراف هو:

نتاج معاملة تتم بين فرد انتهك قاعدة ومجموعة اجتماعية وهو نتاج تفاعل اجتماعي.

ويتم تحديد المعايير الاجتماعية من قبل مجموعة اجتماعية محددة تكون إما قادرة على اقناع غالبية المجموعة بصحة هذه المعايير، أو فرضها على مجموعة من الأفراد. وبعيدا عن كونها نتاجا لاتفاق بالإجماع، فإن الأعراف الاجتماعية موضع خلاف وصراع. فممكن ما يعرف على انه انحراف في مجموعة ممكن لا يعتبر كذلك في مجموعة أخرى.

فطبقا لمفهوم الانحراف في العلوم الاجتماعية بأنه انتهاك لمعيار مقبول عموما. إلا انه يظل هذا التعريف ناقصا بالنسبة لبيكر لانه يعتقد أن الانحراف هو من صنع المجتمع وبالتالي فإن الانحراف هو نتيجة لتطبيق المعايير من قبل الآخرين، ولهدا السبب فإن انحراف الفعل أو عدمه يعتمد على رد فعل الآخرين.

وبالتالي فإن الاتهام العلني هو الذي يؤدي إلى اعتبار الفعل منحرفا وهو ما يدفع "بيكر" إلى السؤال من يفرض المعايير؟ ليجيب أنه هناك دائما فئات اجتماعية تفرض معاييرها بالقوة على الآخرين كما هو الحال بين البالغين والأطفال، والرجال يضعون المعايير للنساء، والسود يجدون أنفسهم خاضعين لمعايير البيض.

ينتمي بيكر إلى حركة التفاعلية الرمزية التي تتكون من دراسة جميع الأطراف المعنية في موقف ما بالإضافة إلى علاقاتهم.

❖ **نظرية التصنيف**:

يفضل بيكر تسميتها نظريات الانحراف التفاعلية. ويميز "بيكر" بين عدة أنواع من السلوك المنحرف، اعتمادا على ما إذا كان يُنظر إليها على أنها منحرفة أم لا، ووفقا إذا كانت تخضع لمعيار ما، أو يتجاوزها، وبذلك تؤسس العلاقات التالية: يُنظر إلى:

-منحرف +مطيع للقاعدة = متهم خطأ

-غير منحرف+مطيع للقاعدة = مطيع

-منحرف + ينتهك القاعدة = منحرف تماما

-لا ينظر إليه على أنه منحرف + تجاوز القاعدة = منحرف سرا

يساعد هذا التصنيف على فهم نشأة السلوك المنحرف وتطوره مع الوقت.

تجمع نظرية التصنيف عددا من علماء الاجتماع المعاصرين لبيكر للنظر في التفاعلات بين أولئك الذين ارتكبوا الانتهاك وأولئك الذين يوجهون هذه الاتهامات.

ووفقا لبيكر فإحدى مساهمات هذا النهج هي تسليط الضوء على أنه مجرد تصنيف الفرد على انه منحرف هو أمر حاسم في متابعة الفرد في الانحراف وهذا الوصم بالكاد يمنعه من الحصول على حياة طبيعية.

إذا يجب تعريف الانحراف وفق معيارين: القيام أو عدم القيام بفعل لا ينطبق مع القاعدة. واعتبار الجماعة هذا الفعل منحرفا. وهذا المعيار المزدوج يجعل من الممكن التمييز بين أربع مراحل يخوضها الفرد المنحرف.

المرحلة الأولى:

هي تجاوز القاعدة. وهذا لا يكفي للإشارة إليه على أنه منحرف.

المرحلة الثانية:

الالتزام، يحدث عندما يكون الانتهاك أكثر انتظاما. ومن ثم يعني الدخول في أسلوب حياة وتغيير الهوية. والالتزام ممكن فقط إذا تعلم الأفراد المشاركة في ثقافة فرعية منظمة حول نشاط منحرف معين هذه هي لحظة التنشئة الاجتماعية للانحراف.

المرحلة الثالثة:

هي واحدة من أهم المراحل هي التصنيف العام. فالاعتراف علنا بأنه منحرف، له عواقب مهمة على المشاركة اللاحقة في الحياة الاجتماعية، وعلى تطور الصورة الذاتية للفرد. بمعنى أن الهوية تتغير في عيون الآخرين. حيث يكتسب الفرد مكانة جديدة وتعتبر هذه الوصمة هي السمة الرئيسية التي يستخدمها الآخرون للتعريف

بالشخص المنحرف ككل. خاصة من خلال الطريقة التي يعامل بها المنحرفون التي تحمل ممارساتها الرفض والذي يدفعه إلى ممارسات غير مشروعة.

المرحلة الرابعة:

هي الانتماء إلى جماعات منحرفة، مما يؤدي إلى نوعين من النتائج.

-تُطور الجماعات المنحرفة تبريرات بهدف إضفاء الشرعية على الشخصية المنحرفة، مما يسمح للمنحرف بالتفكير بشكل إيجابي في اختلافه وتطابق قيمه.

-أيضا الانتماء إلى جماعة منحرفة يسهل استمرار الممارسات المنحرفة حيث تمتلك الثقافة الفرعية مخزونا من المعرفة والخبرة الجماعية فيما يتعلق بطرق الحفاظ على سرية الممارسات المنحرفة.

يوضح بيكر بعد تحقيقاته مع مدخني الماريخوانا ، كيف أن استخدام القنب يصبح ممتعا فقط بعد التعلم. هذا الذي يتنافى مع ما كان يجادل به الأطباء النفسانيون في ذلك الوقت، بأن تجربة هذا المنتج تلبي رغبة معينة.

أيضا ليس للمدخن خيار سوى الاختباء، حتى عن المقربين منه، والارتباط فقط بالأشخاص الذين لديهم نفس عاداته، فهم يخلقون ثقافة منحرفة، التي تعزز ممارستها عادة، وتظهر الثقافة منحرفة هنا بسبب فرض قاعدة محضورة. وهذا دليل على أن الانحراف يجب أن يركز على الظروف التي تنشأ فيها القواعد. لذا يطرح سؤال من يتهم من؟ وبماذا؟

-استخدم بيكر مفهوم المسار المهني والذي استعاره من سوسيولوجيا العمل من أجل تحليل مسار المنحرفين. وذلك لأنه في مفهوم المسار المهني تظهر خاصية التطور على مراحل والذي نهايته ليست مؤكدة أبدا. هذا الذي يجعل بيكر يؤكد أن حالة

الشخص لا تكون مؤكدة بالكامل، فهي تنجم عن مراحل متتالية لكن ليست بالضرورة أن تكون النتيجة مضمونة.

مثال: فحامل شهادة الطب الذي درس الطب من حيث المبدأ ينبغي ان يصبح طبيبا لكن من حيث المبدأ فقط. فهناك خريجو الطب من لم يصبحو أطباء، ونفس الأمر ينطبق على الانحراف لا يصبح الشخص منحرفا حسب صيرورة غير قابلة للتراجع أو التفادي.

فالنهج التفاعلي الذي طوره "بيكر" يدعونا إلى اعتبار الانحراف عملية في تطور مستمر، يمكن للأفراد الانخراط أو عدم الانخراط فيها. فكلما زاد التزامهم، زاد انخراطهم فيه، وأصبح عليهم من الصعب التخلي عنه.

-المجموعة الثانية التي درسها "بيكر" هي موسيقيو الجاز، الذين قضى معهم فترة طويلة في شيكاغو منذ عام 1948 لأنه كان موسيقيا. فالموسيقيين الذين يصفهم بيكر هم مجرد "هامشيين" يختبرون أنفسهم على هذا النحو. إنهم يعتبرون أنفسهم فنانين ويحلمون بعزف موسيقى الجاز الإبداعية، لكن(الأقبية) -الجمهور بالعامية الموسيقية-لا تطلب إلا شيئا واحدا ان تجعلهم يرقصون على أنغام "تجارية" وعلى هذا مهنة الموسيقيين تهيمن عليها هذه التوترات. والمعضلة الناجمة عنها إما ان ينجحوا بأن يصبحوا أكثر تجارية، أو يحافظوا على مبادئهم ويظلوا فقراء.

-المعنى المزدوج للخارج:

يشير مصطلح "الخارج عن" بالمعنى الأول إلى فرد من المفترض انه انتهك قاعدة ما، وبالتالي يعتبر غريبا عن المجموعة الاجتماعية التي حددت هذه القاعدة. ومع ذلك فإن الفرد المسمى غريب قد لا يقبل المعيار الذي يتم الحكم عليه من

خلاله. وينشأ من هذا معنى ثان للمصطلح: قد يعتبر المخالف أن اعتباره غريب من طرف هؤلاء الذين يجدهم غرباء.

كما يرى "بيكر" أن أكثر الناس لديهم إغراءات منحرفة، لكن ليس كل الناس يعملون بها. ثم يأتي مايسميه "عملية المشاركة". فالتزامات الفرد المتعددة بالأعراف والمؤسسات التقليدية هي التي تمنعه من التصرف بناءُ على إغراءاته المنحرفة.

والحقيقة أن الفرد " السوي" قادر على قمع إغراءاته من خلال التفكير في العواقب التي قد تترتب على اكتشاف الانحراف. لكن بالنسبة لشخص ليس لديه سمعة يحافظ عليها، ولا وظيفة يحافظ عليها، ولا زوجة ولا أولاد يفكر فيهم، فإن المخاطر ليست نفسها. ومع ذلك يشير "بيكر" إلى أن معظم الناس لديهم حساسية تجاه قواعد السلوك التقليدية. ولهذا السبب يستخدم المنحرفون تبريرات انحرافهم، على سبيل المثال: اعتبار الذات سلبية أو اعتبار فعل الانحراف عملا من أعمال الدفاع الطبيعي أو حتى العدالة.

-لا ينجذب "بيكر" في دراسته إلى المنحرف صاحب الفعل الاستثنائي بقدر ما يركز على المنحرف الذي يحافظ على شكل من أشكال الانحراف لفترة طويلة وينظم هويته حول السلوك المنحرف. ويرتكز هذا التطور على تطور دوافع ومصالح منحرفة. ومن خلال مفهوم مسار الانحراف يرى "بيكر" أنه في كل مرحلة سيتوقف بعض الأفراد بينما سيواصل آخرون.

ولذلك فإن تسلسل العلاقات والأحداث هو الذي يقود الفرد إلى الانحراف.

سوف يشارك هذا الفرد تدريجيا في ثقافة فرعية منظمة حول نشاط يعتبر منحرفا. وسينتهي به الأمر إلى اعتبار نفسه منحرفا.

وعندما ينتمي إلى جماعة منحرفة يصبح هذا الانحراف أكثر تماسكا وتنظيما مثل مدخني الحشيش او عازفي الجاز.

أيضا كلما تقدم انحراف الشخص، كلما أصبحت الخيارات المتاحة له محدودة.

وفقا لبيكر، فإن عدد مدخني الماريخوانا يقدم حالة مثيرة للاهتمام لعلم اجتماع الانحراف، حيث أن الدوافع ليست هي التي تحدد السلوك المنحرف، ولكن السلوك المنحرف هو الذي ينتج الدوافع.

إذ يصر " بيكر" أولا على حقيقة أن القنب لا يسبب الاعتماد الفيسيولوجي، وبالتالي فهذه آليات اجتماعية تشرح كيف يصبح الفرد مستهلكا منتظما.

-أيضا تكشف دراسة "بيكر" من خلال طرحه سؤال كيف تصبح مدخنا للماريخوانا؟ ليجد أن تطور عملية تدخين القنب عند المنحرف تنقسم إلى ثلاثة مراحل: تعلم التقنية، تعلم إدراك آثار المخدر، وتعلم الطعم.

فالتحول إلى مدخن ينطوي على تعلم القدرة على استخدام الماريخوانا من أجل المتعة.

لكن هذا التعلم يفترض قبل كل شيء أن المبتدأ، سيقع في حالة تدخين بسبب ارتياده مجموعة معتادة على هذه الممارسة، ثم يحتاج بعد ذلك إلى تعلم كيفية التدخين بشكل صحيح حتى يكون للمخدر تأثير عليه. لكن وجود هذه الأعراض ليس كافيا. ويجب أن يكون الفرد قادرا على إدراكها وربطها بتعاطي المخدرات. وأخيرا يجب على المبتدأ أن يتعلم آثار المخدر، يتعلق الأمر بتعلم برمجة الأحاسيس التي قد يُنظر إليها في البداية على أنها مزعجة أو مزعجة بطريقة إيجابية. فالمرور بهذه المراحل المختلفة هو وحده يسمح بالالتزام الحقيقي بالتدخين.

-يشير بيكر من خلال ملاحظاته إلى أن الموسيقيين أنفسهم هم الذين يعتبرون أنفسهم مختلفين عن غير الموسيقيين. والذين يسمونهم "أقبية" والذين يشعرون بالتفوق عليهم يؤدي هذا الشعور بالتفوق عليهم يؤدي هذا الشعور بالتفوق إلى عزل الموسيقيين عن الآخرين.

❖ **الانتقادات:**

واجهت دراسة الغرباء انتقادات عديدة أهمها :

الموجهة إلى نظرية التصنيف المتهمة بالتشكيك في الأخلاق التقليدية. ويدافع بيكر عالم الاجتماع التفاعلي عن نفسه بالقول أن دراسة جميع الفئات وليس فقط الأشخاص الذين يُفترض أنهم تجاوزا الأعراف.

-انتقدت أيضا بسبب نظرية الوصم أنها تفشل في تقديم تفسيرات لسبب الانحراف أو شرح كيفية اقدام الأفراد على الانحراف.

لذلك سنة 1973 أجاب بيكر عن انتقاداتهم من خلال إعادة إصدار كتابه مع فصل نهائي بعنوان إعادة النظر في نظرية الوصم ووضح انه لم يكن القصد من النظرية أن تؤخذ على أنها نظرية شاملة للانحراف، ولم يكن المقصود منها تفسير السلوكيات المنحرفة، بل القصد منها تركيز الانتباه على الطريقة التي تضع تصنيفات الفرد في ظروف تصعب عليه الاستمرار في حياة طبيعية.